ييي يي ييييي

info@darak-eg.com
02 24832669-010 27251915
51 ب شارع النزهة – من امتداد رمسيس – القاهرة.
جميع حقوق الطبع والتوزيع محفوظة للناشر.

إلى أن نلتقي

تسنيم التلاوي

تصميم الغلاف: أسامة علام

تدقيق لغـوي- تنسيق داخلي:

www.sekoon.com

رقم الإيداع: 2018/25790

الترقيم الدولي: 978-977-6634-19-0

الطبعة الأولى: 2019

تسنيم التلاوي

إلى أن نلتقي

رواية

دارك
للنشر والتوزيع

«عـلى قـدر اقترابـك مـن قلبـي يأتيـكَ الخـذلان؛ فكـن بعيـدًا؛
فأنـا لسـتُ إلا داء مزمـن لم يُخلـق لـه دواء»

الإسكندرية، الثالثة فجرًا..

كانت الأضواء خافتة والنوافذ تئن بنسيم لطيف، والستائر تتمايل بخفة مطاوعة الهواء مستسلمة له، وقد فرغت (غزل) من لوحتها توًا ووضعتها بجوار أخواتها، لقد جعلت الحجرة أشبه بمرسمٍ صغير بداخلهِ عالمٌ تنبعث منه حيوات كثيرة.

احتوت اللوحة على فتاة بجناحي ملاك، أحد الجانحين قوي وبادية فيه الحياة، حُر الحركة، حلو المنظر، أما الآخر فقد كان ممزقًا ملطخًا بالدماء، والباقي منه لا قدرة له على الحركة، ولا أمل له في الشفاء إلا أنها حجبته بهالة من السُّحُب جعلته مخفيًّا عن الناظرين بالعين، جلي لمن اعتاد النظر بالقلب.

بدت ملامح الفتاة في اللوحة هادئة جميلة، أما جوفها كان عبارة عن قلب مقسم لأربعة أشلاء: الأول تمزقه الأغلال، والثاني متحجر نسي الحياة، والثالث تشتعل فيه نيران تكويه، والرابع خواء، خيَّم عليه الضياع.

وأخيراً وقفتْ متأملة تفاصيل اللوحة وخطت بقلمها: «الموتُ مخفي في قلبي أرعاه بحب، والحياة فيَّ جلية لعيونكم - محض كذبة-

لا تمعنوا النظر في تقاسيم وجهي ستدمنون النظر وتحاولون الاقتراب، وبعدها يأتي الفراق، و تخلفونني أُبدي الحياة وأنا أموت.»

ثم عادت مرة أخرى للوحة بعينين متأملتين وقالت: ماذا سأسميكِ؟ صمتت قليلًا وداخلها يقول هذه اللوحة «أنا» لكن ينبغي أن يبقى هذا سرًّا بيني و بين لوحتي، تنهدت محرِّكة شفتيها بشبه ابتسامة وقالت: «ملامح داخلية».. هذا هو الاسم الأنسب لها، فكل منا بداخله وجعٌ عميقٌ مخفي خلف جدار الملامح. رنّت كلمتها الأخيرة في أُذنها؛ فقد أوشكت أن تنسى كيف كانت ملامحها.

انتفضت واقفة تبحث عن مرآةٍ عساها تُذكِّرها بها، أخذت تبحث في الأدراج، تغلق هذا وتفتح ذاك، تبحث بعشوائية، تحاول إيجاد المرآة سريعًا، وأخيرًا امسكت بها؛ كانت مرآة صغيرة بالكاد تعكس وجهها، زفرت باطمئنانٍ مثبتة عينيها على المرآة وأمعنت النظر لنفسها، تأملت عينيها البنيتين، رموشها الكثيفة، طالما اعتقدت أن هذه الرموش تواري حزنها، تحسست وجهها بيدها كأنها تتأكد من وجودها حقًا، وأنها ليست مجرد انعكاس في المرآة، ثم ابتسمت ساخرة من فعلتها تلك، ناظرة إلى فمها الصغير الذي لم تكتمل له إلى الآن بسمةٌ وقالت: ما زلتُ أشتاق لكَ، لكني لن أسامحك..!

ثم قلبت المرآة الصغيرة على المكتب، واتجهت إلى الصالون حيث توجد مرآة كبيرة، كانت ترتدي فستانًا أحمر داكن اللون متوسط الطول بسيطًا -تمامًا كصاحبته-، تاركة شعرها الأسود الطويل منسدلًا على كتفيها، مغطيًا ظهرها وقد أضفى على بشرتها البيضاء صفاءً مريحًا، كان جمالها هادئًا يسحر الجميع ببساطته، عادت مرة أخرى

لغرفتهـا وجلسـت عـلى السريـر ممسـكة أحـد الدفاتـر الصغـيرة، و بـدأت تقـرأ في سرهـا كلـماتٍ واندمجـت في ثنايـا السـطور .

وفجـأة! غطـى ظـلامٌ حالِـكٌ أرجـاءَ الغرفـة حاجبًـا عنهـا الرؤيـة، وأينـما دارت بعينيهـا لا تلمـح إلا سـوادًا داكنًـا، وقفـت وحدهـا والخـوف قـد تملَّـك مـن قلبهـا، تُحـرك شـفتيها لكـن صوتهـا لا يخـرج، تحـاول أن تـصرخ إلا أن خوفهـا كتـم عـلى حواسـها فلـم تسـتطع.. سرت بداخلهـا قشـعريرة جعلـت جسـدها يرتجـف، ينتفـض بقـوة، تحـاول بشـتى الطـرق البحـث عـن مخـرج، أن تتشـبث بـأيّ شيءٍ ينقذهـا، لكـن بـلا جـدوى.

سـارت ببـطء متحسسـة الطريـق أمامهـا، حتـى لا تصطـدم بمـا لا تـراه خطـوات أخـرى، وانسـحبت الأرض مـن تحتهـا تمامًـا وتلاشـت، لا يوجـد سـوى فـراغ معتـم بـدأ جسـدها يسـقط فيـه، لا مفـرَّ لهـا ولا نجـاة لروحهـا، ومـن بـين ظلمتهـا لمحـت شـعاعًا رفيعًـا مـن الضـوء بالـكاد جعلهـا تميِّـز مـا تـرى، ومـن ناحيتـه لمحـت يـدًا تمتـد إليهـا محاولـة إمسـاكها، ظنـت أنهـا مُـدَّت لإنقاذهـا فمـدت هـي الأخـرى، يدهـا متشـبثة بهـا، أحكـم كُلٌّ منهـما قبضتـه عـلى الآخـر، وبـدأت هـذه اليـد تصعـد بهـا تدريجيًّـا تجـاه النـور حتـى قاربـت عـلى الوصـول، وهـي تسـأل نفسـها: مَـن الـذي أنجدهـا؟ فهـي لم تـرَ حتـى الآن سـوى يـده، ولم تكـد تُنهـي سـؤالها حتـى رأتـه، كان والدهـا، ابتسـم لهـا ثـم أفلـت يدهـا، دافعًـا إياهـا، لتكمـل سـقوطها وحدهـا، أطلـق ضحـكاتٍ عاليـة سـاخرة زادت مـن رعبهـا، حاولـت حجـب صوتـه عنهـا واضعـة كلتـا يديهـا عـلى أذنيهـا ضاغطـة بقـوة عـلى رأسـها، وظلـت بعدهـا تهـوي وتهـوي والعمـق سـحيق، ربمـا لا قـاعَ ولا نهايـةَ لهـذا الفـراغ، هـل سـتبقى هكـذا عالقـة؟ أحقًـا لا نهايـة لهـذا الكابـوس؟

فجأة ارتطم جسدها بالأر ض في عنفٍ، وأخيراً يخرج صوتها، شهقة عالية أقرب إلى النحيب، وأحدهم ظهر من اللا شيء يمسك كتفيها، يهزها بقوة مع توسلات لها بالعودة ونداءات متكررة: (غزل)! (غزل)! (غزل)!...

فتحت عينيها بفزعٍ لتجدها والدتها تهز كتفيها لتستفيق، فانتفضت من سريرها جالسة والعرق ينهمر على وجهها، وجسدها كقطعة جليد باردة يرتجف بشدة، ضمتها والدتها إليها وأخذت تمسح على رأسها محاولة تهدئتها قائلة:

- اهدئي حبيبتي لقد انتهى، مجرد كابوس غير حقيقي، كل هذا غير حقيقي، ومَرَّ.

نظرت حولها للغرفة وقد بدا كل شيء طبيعيًا، وحدها فقط غير الطبيعية في ذلك المكان، بالكاد استجمعت نفسها وهدأت قليلًا، جلست والدتها على طرف السرير وسألتها:

- نمتِ وأنتِ جالسة مرة أخرى!!

لم ترد عليها والتفتت حولها باحثة عن الدفتر الذي كان بيدها قبل أن يغلبها النعاس، فمدتْ والدتها يدها إليها بالدفتر وقالت:

- تبحثين عن هذا، صحيح؟!

سحبته (غزل) سريعًا من يدها، ووضعته تحت الوسادة وأجابتها:

- كان معي قبل أن أغفو؛ لذلك تساءلت أين اختفى؟

- ما زلتِ تكتبين قواعد قلبي؟

- ماذا أفعل يا أمي؟ إنه قلبي ما زال يفرض قواعده.

- سيأتي من يفرض قواعده على قلبك يومًا.

ابتسمت من كلام والدتها وردت:

- قلبي لا يسمح لأحد بالتسلط عليه.

- لا تـدري، ربمـا يتنـازل قلبـك يومًـا، ربمـا يفسـح بـه مكانًـا لقواعـد يفرضهـا عليـه غـيرك.

- ربما، مَن يدري، سأحاولُ العودة للنوم مرة أخرى.

قبّلتهـا والدتهـا وخرجـت عائـدة لغرفتهـا، وقامـت هـي بعدهـا مـن سريرهـا متجهـة إلى الشرفـة ..

حاولـت مـرة أن تنـام لكـن النـوم فـرَّ هاربًـا، ربمـا أراد أن يبقيهـا مسـتيقظة رأفـةً بهـا؛ فكلـما أغمضـت عينيهـا رأتـه أمامهـا، تركهـا طفلـةً ورحـل، كان قلبهـا الضعيـف بحاجـة لـه، لوجـوده وحنانـه، لعطفه وشـفقته، أحبهـا والدهـا كثيراً وهـي صغيرة لكـن مـا إن رحـل وتركهـا لم يسـأل عنهـا ولـو مـرة، اعتبر المـال رابطهـما ومـا عـداه فـلا حـقَّ لابنتـه بـه، اقتلعهـا مـن حياتـه اقتلاعًـا وأجـاد الحيـاة.. وزرعتـه في قلبهـا زرعًـا وواكبـت الحيـاة.

احتفظـت بحزنهـا لقلبهـا ولم تُبـدِه لأحـدٍ، فقـط والدتهـا مَـن شـعرت بهـا، أمـا الآخـرون يرونهـا فتـاةً ثريـةً مُدلَّلـةً، تفعـل مـا تريـد ولا يهمهـا أحـد، تصـل لأحلامهـا بمجـرد التفكـير بهـا، تبـدو قويـة واثقـة مـع هالـة ضخمـة مـن الغمـوض.

كانـت تقـف في الشرفـة المطلـة عـلى طُرقَـات المدينـة، والشـمس قـد بـدأت بالـشروق قاضيـة عـلى عتـمات العـالم، معلنـة أن النـور غالـب لا محالـة، والأشـجار عـلى جانبـي الطريـق يداعـب أوراقهـا النسـيم، محدثـة

صوتًـا رقيقًـا، بائـع الجرائـد ينـادي، سـيدة تعـبر الطريـق، أولاد ذاهبـون للمدرسـة، وآخـرون يلعبـون الكـرة، سـيدة عجـوز تسـقي الأزهـار، والسيارات تتابع وتتلاحـق تذهـب ويـأتي غيرهـا، كل العـالم حولها يتحـرك كل الدنيـا تسـتمر، وحدهـا فقـط تقـف وكل شيء حولهـا يسـير.

أغمضـت عينيهـا، وابتسـمت ابتسـامةً جانبيـةً حاملـة في ثناياهـا الكثـير مـن السـخرية، مُحدِّثـة نفسـها:

«مـا أغبـاكِ، لا أحـد يهتـم لأحـدٍ، لا أحـد يشـعر بي، ولا يتـألم غـيري عـليَّ، الجميـع يتابـع ويمـضي، الدنيـا التـي أحزنتنـي لا تبـالي ولـن تبـالي يومًـا، و لـن تقـف الدنيـا عـليَّ، أنـا الغريبـة في وسـط زمـانٍ يَمـر، أنـا المدينـة لـكل العابريـن، أنـا التـي وقفـت حياتهـا عـلى لحظـاتٍ صـارت في الزمـن المـاضي وفي القلـب الحـاضر. تنفسـت همَّهـا وحبسـته، وأرجعتـه لقلبهـا بـل لقبرهـا، وقالـت: لأتابـع فـلا يوجـد مـا يسـتحق الوقـوف».

***

داخـل أحـد القصـور النائيـة كان (يـزن) يـودع والـده عـز الديـن؛ فلقـد عـزم عـلى العـودة إلى حيـث فارقـت والدتـه الحيـاة، لا يعلـم حقًـا إن كان هـذا سيهدِّئ مـن قلبـه المشـتاق أم سـيزداد تعلُّقًـا وسـخطًا، اعتـبر كلـمات والـده المترجيـة في البقـاء معـه كالعـدم بالنسـبة لـه، كأنهـا لا شيءَ، ربمـا لأنـه اعتـاد البُعـدَ عـن والـده سـابقًا، نظـر لـه والـده بـترجٍّ وقـال:

- ما زلتَ عازمًا على الرحيل؟

- سآتي لزيارتك من حين لآخر.

- أنـا أحتاجـك بجانبـي يـا بنـي، لا أريـد أن تـأتي بضـع سـاعات وترحـل عنـي بعدهـا كالغريـب.

- أنا أحتاجها يا أبي.

قال كلمته تلك وفرَّت دمعة من عينه لكنه سرعان ما خبَّأها محتضنًا والده مودعًا له، بعدها أخذ حقائبه ووضعها بسيارته وانطلق، وما إن فُتِحَت بوابات القصر المطلة على غابة كبيرة حتى انطلقت السيارة بأقصى سرعتها، مسابقة الدنيا بأسْرِها، مدَّ يده وضغط على زر النسيان في سيارته، تلك الموسيقى الصاخبة التي تجعل العالم صامتًا في أذنيه، يظن أنها خُلِقَت للنسيان ولا يدرك أن النسيان لم يخلق ما يؤدي إليه، لا يدري أنه في كل مرة يحرص فيها على النسيان يتذكَّر أكثر!

سارت السيارة بأقصى سرعة، والموسيقى صاخبة للحد الذي يجعل العالم يتزلزل في رأسه والهواء شديد يكاد يقتلعه من داخل سيارته، مدَّ يده فاردًا ذراعه في الهواء وصرخ بقوة: «ااااااااااااااه» عدة مرات وصرخات.. وانحرفت السيارة فجأة من الطريق، وكادت تصطدم بإحدى الأشجار الكبيرة إلا أنه تدارك الموقف في آخر لحظة، ظلت السيارة ساكنة وقائدها يغلي، أخذت نبضات قلبه تتلاحق وبات يتنفس بسرعة شديدة، وضع رأسه على المقود وأخذ يبكي، هذه هي المرة الأولى التي يبكيها منذ رحيلها، مرَّ أسبوع على وفاتها لكنه لم يذرف دمعة واحدة كأن قلبه تحجَّر؛ فهي كانت إحساسه الوحيد وفقدَه، رآها كل شيء وتركته في اللاشيء.

أكثر ما آلمه، فكرة أن والدته انتحرت وليس الأمر مجرد حادث ومرَّ، يعرف أنها بدت قوية لكنه يعرف أيضًا أن قلبها الزجاجي يتهشم من طرقة بسيطة، كفف دموعه متصلًا بصديقه (عمر) لطالما اعتبره أقرب أصدقائه وأكثرهم حبًا له وخوفًا عليه، و فورًا ردَّ عليه:

- كيف حالك يا صديقي؟

- أنا عائد إلى البيت اليوم.

- هل أنت بخير؟

- ليس تمامًا، تعطلت سيارتي في الطريق.

- أرسل لي العنوان وسآتي إليك فورًا.

- حسنًا، أنا بانتظارك.

أنهى مكالمته وظلّ منتظرًا صديقه في السيارة، الانتظار قاتلٌ هذه حقيقة لا شكَّ فيها، ظلّ يفكر في السنوات القليلة الفائتة، كأن كلّ ما حدث معه منذ ولادته حتى الآن مرَّ سريعًا كالبَرق الخاطف، يتذكر أول مفارقة له مع عائلته، حينما قرر والده إرساله إلى تلك المدرسة الداخلية البعيدة، كان عمره أربع سنوات، رأى البُعد عن عائلته صعبًا في البداية لكنه تأقلم، عوَّد نفسه على الابتعاد والعزلة حتى إنه أحَبَّ وحدته كثيراً.

تذكر أيام الجامعة، وكيف كان أكثر بُعدًا وأقل شعورًا، وتلك المشاحنة التي اشتعلت بينه وبين والده حينما قرَّر السفر إلى إنجلترا والعمل هناك، وكذلك والدته وحديثها معه وتوسُّلها في بقائه بجانبها، ثلاث سنوات مرَّت عليه قلَّمَا تحدَّث مع والديه واشتاق قربهما، لا يستطيع الإنكار أن سنوات غربته عادت عليه بنجاحٍ كبيرٍ وأثقلت خبرته في الحياة لكنه فقد في تلك السنوات آخر ما تبقى لديه من شعورٍ.

أعتقد أن وفاة والدته لن تنغز في قلبه كالسكين، ظنَّ أنه لن يتألم كل هذا الألم لفقدها، لَم يشعر بكل هذا الاحتياج لها عندما كانت على قيد الحياة، فلماذا الآن يشعر بأنه فقدَ نفسه معها؟!